محمد البشير الإبراهيمي من المنطلقات الإصلاحية إلى الكتابة الفنية/ رواية الثلاثة نموذجا

Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi, from reformist perspectives to artistic writing/ The Three's novel as an example

Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi est l'un des perspectives réformistes à l'écriture artistique/ L'exemple du roman des Trois

توفيق مساعدية[1]*

تاريخ الإرسال: 2024/01/19 **تاريخ القبول:** 2024/03/02 **تاريخ النشر:** 2024/06/01

ملخص:

يعد البشير الإبراهيمي واحدا من أبرز رواد النهضة الإصلاحية في الجزائر نظرا لإسهاماته الجليلة في الوقوف في وجه المستعمر من خلال كتاباته التي كانت صناعة ثقيلة في تربية الرجال وسلاحا فعالا في إيقاظ ضمير الأمة، وإلى جانب هذه المهمة السياسية التي سخر لها نفسه كان أديبا وشاعرا متبحرا في اللغة العربية وآدابها، وعمله الموسوم ''رواية الثلاثة'' خير دليل على ذلك، وهذا المقال يهدف من جهة إلى توضـــيح المنطلقات الإصـــلاحية التي انتهجها الابراهيمي، ومن جهة أخرى توضـــيح القيمة الفنية لعمله الفني الموســـوم رواية الثلاثة.

الكلمات المفتاحية: رواية الثلاثة؛ الإبراهيمي؛ الاصلاحية؛ الفنية

Abstract :

Al-Bashir Ibrahimi is considered one of the most prominent pioneers of the reformist renaissance in Algeria due to his great contributions to standing up to the colonialists through his writings, which were a heavy industry in educating men and an effective weapon in awakening the conscience of the nation. In addition to this political mission to which he devoted himself, he was a writer and poet who was versed in The Arabic language and its literature, and his work titled "The Novel of Three" is the best evidence of that. This article aims, on the one hand, to clarify the reformist principles followed by Al-Ibrahimi, and on the other hand, to clarify the artistic value of his artistic work titled "The Novel of the Three".

Keywords: The novel of the three; Al-Ibrahimi; reformatory; Artistic

Résumé :

Al-Bashir Ibrahimi est considéré comme l'un des pionniers les plus éminents de la renaissance réformiste en Algérie en raison de sa grande contribution à la résistance aux colonialistes à travers ses écrits, qui furent une lourde industrie pour l'éducation des hommes et une arme efficace pour éveiller la conscience de la nation. En plus de cette mission politique à laquelle il se consacrait, il était un écrivain et poète versé dans la langue arabe et sa littérature, et son ouvrage intitulé "Le Roman des Trois" est la meilleure preuve. L'article vise, d'une part, à clarifier les principes

*المؤلف المراسل

[1] Taoufik Messadia, Department of Arts and Arabic Language, Faculty of Arts and Languages, University of Mentouri Constantine1, Algeria. Messadia.toufik@umc.edu.dz

réformistes suivis par Al-Ibrahimi, et d'autre part, à clarifier la valeur artistique de son œuvre artistique intitulée " Le Roman des Trois ".

Mots clés : Le roman des trois ; Al-Ibrahimi ; maison de correction; Artistique.

مقدمة

نشـأ الإبراهيمي–والقول لعبد المالك بومنجل– في أسـرة ورثت عن الأجداد ما يرث العلماء عن الأنبياء، حيث بدأ مسيرته العلمية وهو لا يتجاوز سنه الثالثة بتعلم الكتابة وبحفظ القرآن على يد مقربيه من حفاظه (بومنجل، 2009، صفحة 21)، يقول الإبراهيمي: " وكان الذي يعلمنا الكـتابة ويلقننا حفـظ القرآن جـماعة من أقـاربنا من حفاظ القرآن " (الإبراهيمي، 2007، صـفحة 12)، وكان المشـرف عليه في هذا التتلمذ عمّه الشـيخ محمد المكي الإبراهيمي، المتفنن في علوم العربية من نحوها وصـرفها واشـتقاقها ولغتها، وتُعدّ هذه المرحلة المتقدمة التي تلقى فيها الإبراهيمي تعليمه وتربيته وحفظه للقرآن، ولمختلف العلوم سواء أكانت أدبية أم لغوية أو شـرعية أخصـب المراحل في حياته، وأشـد العوامل تأثيرا في تكوين شـخصـيته الدينية والأدبية ، وفي بناء معارفه الموسـوعية وتنمية مواهبه الفكرية (بومنجل، 2009، صـفحة 21).

إن هذه التربية التي تلقاها الإبراهيمي على يد عمه، والقائمة على تلقين المعارف بالمصـاحبة –سـواء في أوقات التّعليم المحددة أو في أوقات التجوّل والتفسّح– يُعدّ الأسلوب الأمثل في تنشئة الفرد تنشئة صحيحة، والدليل على أن هذا الأسـلوب ذو آثار باهرة، وثمار يانعة، هو أن الإبراهيمي ما كاد يبلغ سـن التاسـعة حتى غدا يسـتظهر القرآن، ويفهم مفرداته، ويشرح غريبه، ويحفظ الكثير من الكتب التراثية (بومنجل، 2009، الصفحات 21–22).

وزيادة على هذا التحصـيل المعرفي التفت الإبراهيمي –بتوجيه من عمه–إلى الاطلاع على دواوين فحول الشـعراء المشارقة ورسائل بلغائها حيث كان لهذا الاطلاع الأثر الكبير في تنمية ملكته اللغوية (بومنجل، 2009، صفحة 22).

وبعد مرض عمه تولى الإبراهيمي تدريس زملائه الطلبة نيابة عنه وهو في سن الرابع عشرة، وبعد وفاة عمه واصل الإبراهيمي تدريس ما تعلمه من عمه وأجاز له تدريسـه إلى أن تجاوز سـن العشـرين (فايد، 2009–2010، صـفحة 117).إن هذه الإجازة المحصـل عليها من قبل عمه جعلت منه خليفته في تعليم الطلبة الوافدين عليه من البلدان القريبة، وما كان يكتفي بذلك، بل كان يخرج ويتنقل إلى المدارس القبلية القريبة من بلدته ليدرس فيها حيث يكون عدد الطلبة أكثر وتتوفر مرافق السكن (بومنجل، 2009، صفحة 23).

1– البشير الإبراهيمي / التطلع للمعرفة

إن هذه التجربة التي عايشـها الإبراهيمي، أكسـبته نبوغا وتفوقا سـواء في العلوم الشـرعية أو العربية، لكنه ظل شـغوفا متطلعا إلى المزيد من العلم (بومنجل، 2009، صـفحة 23)، ولما كانت الجزائر لا تلبي طموحاته، نظرا للسـيطرة الاستعمارية على المراكز الثقافية والموجهة وفقا لسياستها (فايد، 2009–2010، صفحة 118)، فقد اتخذ الإبراهيمي قرار الهجرة إلى المشرق وتحديدا إلى المدينة المنورة سنة ألف وتسعمائة وأحد عشر (الإبراهيمي، 2007، صفحة 14).

وفي وجهته هذه مرَّ بتونس ثم ليبيا ثم مصر حيث أقام بالقاهرة ثلاثة أشهر، حيث تسنى له حضور دروس أشهر علماء الأزهر وشيوخها والتعرف عليهم (الإبراهيمي، 2007، الصفحات 14-15)، ومن القاهرة شدّ الرحال قاصدا المدينة المنورة، التي حلّ بها أواخر سنة 1911، حيث تسنى له الاجتماع بوالده، إلا أن العلم الذي وجده الإبراهيمي في الحرم النبوي لم يرق له، بل هو على حد وصفه ليس من العلم في شيء، باستثناء ما وجده عند شيخيه: الوزير التونسي، والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي (الإبراهيمي، 2007، صفحة 15).

وخلال هذه الفترة التي قضاها الإبراهيمي في المدينة المنورة ظل ينتخب لنفسه –والقول لعبد المالك بومنجل- العلماء ويأخذ عنهم ما يحتاجه من العلوم والآداب (بومنجل، 2009، صفحة 24)، وعلى الرغم من غزارة المادة العلمية التي حصلها الإبراهيمي جراء مصاحبته لهؤلاء الأجلاء، إلاّ أنّه لم يكتف بهذا التحصيل؛ بل راح يتردد على كبريات مكتبات المدينة التي كانت تزخر بعدد وفير من الكتب والمخطوطات النادرة في شتى أصناف العلوم والمعارف، والأكيد أن هذه المكتبات -بمصنفاتها –قد أشبعت رغبة الإبراهيمي في المطالعة والتبحر في مختلف العلوم والمعارف، فضلا عما منحته له من فرصة للاحتكاك بروادها من علماء وطلبة، وهو ما كان يفتقده في الجزائر (فايد، 2009-2010، الصفحات 121-122).

إن الفترة التي قضاها الإبراهيمي في المدينة -على امتداد خمس سنوات-ساهمت في تفتح الملكات الإصلاحية والسياسية أمامه، وخاصة مع الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي التقى به في المدينة المنورة سنة (1331 هـ/ 1913 م) (عمارة، 2011، الصفحات 8-9) حيث اتفقا على تخليص الجزائر "وانتزاعها من المسخ الاستعماري الصليبي الفرنسي، وإعادتها إلى العروبة والإسلام ... وكان التعليم و الإصلاح الديني هو السبيل إلى تحقيق هذه المقاصد، التي قامت لإنجازها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة (1349هـ/مايو 1931م) ... " (عمارة، 2011، صفحة 9).

وبعد ثورة الشريف حسين بن علي(1270-1350هـ/ 1854-1931م) -حاكم المدينة المنورة حينئذ-ضد الخلافة العثمانية –ولحساب الانجليز-وكان الشيخ الإبراهيمي ضد هذه الثورة-تم ترحيل الكثيرين من سكان المدينة إلى دمشق-ومنهم الإبراهيمي ووالده-في النصف الأخير من سنة (1335هـ/1917م) (عمارة، 2011، صفحة 9).

وفي دمشق، انهالت على الإبراهيمي الطلبات لإلقاء الدروس بالمدارس الأهلية، وبالجامع الأموي حيث امتثل لها، وألقى دروسا على طريقة الأمالي (بومنجل، 2009، صفحة 25).

وبخروج الأتراك من دمشق وقيام حكومة الاستقلال العربي دعيّ من قبل الحكومة الجديدة إلى تدريس الآداب العربية بالمدرسة السلطانية، حيث تخرج على يده مجموعة طلبة أصبحوا فيما بعد عمداء الأدب العربي في سوريا أمثال جميل صليبا، أديب الروماني، عدنان الاتاسي وغيرهم من الأدباء (الإبراهيمي، 2007، صفحة 18)، الذين أصبحوا فيما بعد – والقول لبشير فايد " أعلاما وأقطابا بارزين في دنيا الفكر والأدب والسياسة" (فايد، 2009-2010، صفحة 124).

2- البشير الإبراهيمي / الرؤية الإصلاحية

تعد الفترة التي قضاها الإبراهيمي مقيما في دمشق من أخصب مراحل حياته إذ إلى جانب نشاطه التعليمي عقد الكثير من اللقاءات والاتصالات والصداقات مع العلماء والمفكرين ورجال الثقافة والأدب في سوريا (فايد، 2009-2010، صفحة 125).

إن هذه الرحلة التي رحلّت الإبراهيمي إلى المشرق العربي فتحت أمامه آفاقا علمية وفكرية لم يكن ليجدها لو بقي في الجزائر التي عانت جفافا فكريا وثقافيا كبيرين بفعل السياسة التجهيلية التي عملت السياسة الاستعمارية على تكريسها (فايد، 2009-2010، صفحة 128)، فمن خلال هذه الرحلة استطاع الإبراهيمي " أن يستزيد في العلوم، وينمي قدراته ومواهبه، فما عاد إلى الجزائر إلاَّ وهو بحر فائض بالمعارف ، وزهرة عبقة بالروائح " (بومنجل، 2009، صفحة 27).

وبعد أن اختمرت في ذهن الشيخ البشير فكرة الإصلاح العلمي والسياسي - التي كانت موضوع اجتماعاته مع الشيخ عبد الحميد بن باديس-عاد إلى الجزائر أوائل سنة 1920م ؛ حيث وجد صديقه الشيخ ابن باديس قد سار على النهج الذي رسماه أيام إقامتهما في المدينة المنورة (بومنجل، 2009، صفحة 28).

ومؤازرة لهذا السعي الجليل الذي بدأه ابن باديس، شرع الشيخ البشير في مباشرة العمل؛ حيث ابتدأه بعقد الندوات العلمية للطلبة، وتقديم دروس علمية للجماعات القليلة، ثم انتقل إلى إلقاء الدروس للتلاميذ الملازمين، بعدها أخذ في إلقاء المحاضرات التاريخية والعلمية إلى جانب دروس الوعظ والإرشاد في المدن العامرة والقرى الآهلة في مناطق مختلفة، وحين تسللت صيحاته إلى الجماهير الشعبية أسس مدرسة صغيرة بمدينة سطيف يعلم فيها الشبان فنون الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير بعد تزويدهم بالزاد العلمي الضروري لذلك (بومنجل، 2009، الصفحات 28-29)، إلا أن خوفه من مكائد الحكومة الاستعمارية- التي عملت على ملاحقته بالتقارير -جعلته يلجئ إلى التظاهر بممارسة التجارة (الإبراهيمي، 2007، صفحة 21).

وعن هذه المحلة من بدايات العمل الإصلاحي يقر الابراهيمي أن الاتصالات لم تنقطع بيته وبين الشيخ ابن باديس، فقد كانا يتبادلان الزيارات ويجتمعا مع بعضهما لتبادل وجهات النظر " للنهوض بالأمة، وتجديدها دينيا، وبعثها وطنيا، وكيفية تخليصها من الاستعمار المادي، وتحريرها من الاستعمار الروحي" (دراجي، 2009، صفحة 5).

بقي العمل التمهيدي للحركة الإصلاحية بالجزائر متواصلا عشر سنوات حتى جاءت سنة 1930 حيث أقامت فرنسا مهرجانات الاحتفال بمئوية استعمارها للجزائر حيث استفزت باحتفالاتها ضمير الأمة، وفجرت فيها روح الإصلاح وطاقات المقاومة، وفي مواجهة هذا الفجور الاستعماري/الصليبي تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة (1349 هـ/ 1931م)، وكان رئيسها الإمام ابن باديس، ونائبها الإمام البشير الإبراهيمي، وبذلك بدأت الثورة الإصلاحية والإحيائية في الجزائر، سالكة طريق المنهاج الإسلامي في الإصلاح بواسطة المؤسسات الإصلاحية، والعمل المؤسسي المنظم (عمارة، 2011، الصفحات 10-11).

كان لدى الشيخين يقين -أيام الأسمار المتواصلة في المدينة المنورة-من أن البلاء المنصب على الشعب الجزائري آت من استعمارين؛ استعمار مادي ممثل في الاستعمار الفرنسي واستعمار روحاني ممثل في مشائخ الطرق، والاستعماران

متعاضـــدان يؤيد أحدهما الآخر وهدفهما تجهيل الأمة لئلا تَفِيق بالعلم فتســـعى في الانفلات من أســـرها (الإبراهيمي، 2007، الصفحات 23-24).

ومن على هذه الشرفة انطلقت الجمعية في نشاطها الإصلاحي مبتدئة عملها بحملة جارفة على البدع والخرافات، وتعميم التعليم لأبناء الشعب وبناء المدارس، ومطالبة الحكومة برفع يدها على المساجد، وعلى أوقاف المسلمين ومطالبتها بعدم تدخلها في الأعمال التي تقوم بها الجمعية. فما كادت تمر سنة من نشاط الجمعية في تحقيق أهدافها الإصلاحية حتى بدأ الاستعمار يحاصر نشاط الجمعية، بعدما أدرك يقينا أن الجمعية سائرة بشعبها وقائدة إياه على درب التعلم والرفض والنهوض (بومنجل، 2009، صفحة 30).

ومن أجل توسيع نشاط الجمعية، تم تعيين العلماء الكبار على المقاطعات الثلاث ليكون كل واحد منهم مشرفا على الحركة الإصـــلاحية والعلمية بها؛ فكانت مقاطعة قســـنطينة لابن باديس، ومقاطعة الجزائر للطيب العقبي، أما الإبراهيمي فقد خصّ بمقاطعة وهران، حيث انتهج الإبراهيمي برنامجا ثريا لتدريس مريديه وأتباعه (بومنجل، 2009، صفحة 30).

ويضاف إلى هذه الثورة التعليمية التي اعتمدتها الجمعية في حركتها الإصلاحية، قيامها بإصدار الجرائد التي كان لها دور كبير في إيقاظ الوعي الوطني والإصـــلاح الديني، والقضـــاء على الجمود الفكري، ومحاربة البدع والخرافات (دراجي، 2009، صفحة 6).

وأمام هذا المد الإصـــلاحي وهذا التحدي الصـــارخ الذي صـــاحبه اســـتخفاف واســـتهتار بقوانين الحكومة الاستعمارية، قام رئيس وزراء هذه الأخيرة بإصدار قرارا يقضي بنفي الشيخ الإبراهيمي إلى الجنوب الوهراني وتحديدا إلى منطقة ''آفلو''، وتم نقله إلى منفاه في العاشر من مارس سنة 1940م،ولم يكاد يمر على استقراره بمنفاه غير أسبوع حتى تلقى الإبراهيمي خبر وفاة الشيخ ابن باديس، اثر ذلك اجتمع المجلس الإداري للجمعية وانتخب الإبراهيمي رئيسا جديدا للجمعية، فكان يدير شؤونها عن طريق الرسائل وهو في منفاه (بومنجل، 2009، صفحة 31). وبعد خروجه من منفاه الذي دام قرابة ثلاث سنوات عاود مزاولة نشاطه في الجمعية بشكل إداري فعلي، وكانت فاتحة عمله تنشيط حركة إنشاء المدارس التي لقيت تجاوبا ومســـاعدة شـــعبية كبيرة، وأمام هذا النشـــاط العظيم للإبراهيمي، أدركت فرنســـا أن عقوبتها له بالتغريب لم تكفي لكسر شوكته؛ لأنه عاد من منفاه أمضى لسانا وقلبا وعزيمة مما كان عليه، فعمدت إلى استغلال فرصة نهاية الحرب العالمية الثانية لتدخله الســـجن مرة أخرى بتهمة التدبير لأحداث 08 ماي 1945 ، وبعد الإفراج عنه – بعد أن لبث في السجن سنة إلا قليل-بدعوة صدور عفو عام؛ عاد إلى قيادة العمل الإصلاحي أين قام بإحياء المدارس التي عطلتها -زمن الحرب- الحكومة الاستعمارية ، كما أحيا جريدة البصائر التي تولى إدارتها ورئاسة تحريرها (بومنجل، 2009، صفحة 31).

بقي الإبراهيمي وفيا لمبدأ الجمعية الإصـلاحي في الميادين التربوية والعلمية والأدبية والسـياسـية والاجتماعية، إلى غاية ســـنه 1952 حيث غادر أرض الوطن متجها إلى المشـــرق العربي؛ وطاف بدولها، وألقى العديد من الدروس

والمحاضرات في الدين والاجتماع والتاريخ والإصلاح " ومدرسا بالمساجد الكبرى، وبعض المدارس لعلوم الإسلام والعربية، ومعرفا بالقضية الجزائرية، وداعيا إلى مناصرة شعبها وثورتها ... وسائر قضايا الأمة الإسلامية" (عمارة، 2011، الصفحات 12-13).

وهناك بالمهجر، عرضت عليه مناصب كثيرة ورفيعة إلا أنه رفضها لأنها لا تتناسب مع الغاية التي جاء من أجلها، ورضي منها بمنصب العضوية بمجمع اللغة العربية بالقاهرة –التي اتخذها مركزا لنشاطه- سنة 1961م (عمارة، 2011، صفحة 13).

وبعد حصول الجزائر على الاستقلال سنة 1962م عاد الإبراهيمي إلى وطنه بعد غياب طويل، وألقى خطبتي أول صلاة جمعة في افتتاح مسجد (كتشاوة) –الواقع بالجزائر العاصمة –الذي عاد مسجدا بعد أن كان الاستعمار الفرنسي قد حوله إلى كنيسة كاثوليكية طوال قرن ونصف من الزمن (عمارة، 2011، صفحة 13). وتعد آخر أعمال الشيخ البشير الإبراهيمي –قبيل وفاته وإبان مرضه- النداء الذي أذاعه في 16 أفريل سنة 1962م إلى قادة الدولة الجزائرية داعيا إياهم –في سياستهم-إلى إعادة الجزائر إلى منهاج الإسلام في الإصلاح (عمارة، 2011، الصفحات 13-14)، لرؤيته أن طريق الاشتراكية –الذي سيرت فيه الجزائر المستقلة-لا يمت بصلة إلى جذورنا الإسلامية، وقد كانت نتيجة صدعه بالحق ومعارضته للنظام أن وضع في الإقامة الجبرية حتى وافته المنية في التاسع عشر ماي سنة 1965م (بومنجل، 2009، صفحة 32).

3- رواية الثلاثة وأفق الكتابة

كرس الإبراهيمي حياته للإصلاح وتكوين الرجال قارنا القول بالفعل والفعل بالقول، ونظرا لثقل المهمة التي كلف بها نفسه لم يكن له متسعا للتأليف يقول الإبراهيمي: " لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكني ألفت للشعب رجالا، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته، فأصبح مسلما عربيا، وصححت له موازيين إدراكه، فأصبح إنسانًا أبيًا، وحسبي هذا مقرباً من رضا الرّب ورضا الشّعب " (الإبراهيمي، 2007، صفحة 32).

إن عدم انشغال الإبراهيمي بالكتابة والتأليف سببه تفضيله للمصلحة العامة على حساب المصلحة الخاصة، انطلاقا من إيمانه من أن خدمة الأمة تقتضي تقديم الأولى على الثانية، وبذلك أظهر استعدادا كبيرا للعمل والنضال حتى استعادة البلاد حريتها (فايد، 2009-2010، صفحة 166).

ورغم هذا، فقد ترك مجموعة أوراق بين المخطوطة والمطبوعة تناولت مواضيع متنوعة مست مختلف المجالات؛ الدينية واللغوية والأدبية والاجتماعية، وقد ذكر عناوين أعماله في مقالته الآنفة الذكر (الإبراهيمي، 2007، الصفحات 32-33).

ويعد عمله ''رواية الثلاثة'' من الآثار النفيسة التي خلفها البشير الإبراهيمي، وهي رواية شعرية من أبدع الروايات التي صيغت بطريقة خاصة وأسلوب متميز، حيث سلك فيها البشير الابراهيمي أصعب السبل فمن لزوم ما لا يلزم، إلى الأمثال السائرة النابعة من روح العصر، إلى الحكم العربية الأصيلة (حمادي، 2007، صفحة 344).

كتب البشير الإبراهيمي هذا العمل الفني الموسوم ''رواية الثلاثة'' وهو في منفاه في مدينة آفلو الجزائرية، بغرض مداعبة أصحابه الذين تأخروا عن مراسلته، والأكيد أن الوحدة والعزلة المفروضتين على الشيخ الإبراهيمي هي السبب المباشر وراء ميلاد هذا العمل الإبداعي (كاتب، 2005، صفحة 4)، والدليل على ذلك ما صدر به مقدمة نصه قائلا:" نظم الشيخ هذه الرواية، وتخيل معانيها في أوقات متضاربة، كانت الوحشة والملل ألزم صفاتها، فجعلها مذبة للوحشة، ومجلبة للأنس وأداة للتسلية" (الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، 1998، صفحة 60)

ولما كان الأمر له صلة بالبشير الابراهيمي، فإننا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن موضوع رواية الثلاثة "جزائري الجنسية أصيل الأهل والنّسب معروف النشأة والدار، عربي الروح والفكر والمزاج، واقعي الشكل والمحتوي، ظاهرها هزل وباطنها جدّ، بحيث تجعل القارئ وكأنه به يجول في تلك الرسائل الفريدة النوع، وتلك القصص المحبذة للنفس التي أتحف بها الجاحظ الأدب العربي" (حمادي، 2007، صفحة 344).

إن أول ما يلحظ على ''رواية الثلاثة'' أنها نص أدبي ينتمي إلى جنس الشعر، ثم إن هذا الشعر في حد ذاته ينتمي إلى جنس داخلي آخر هو الرجز، الذي غالبا ما يقترن بالمنظومات والشعر التعليمي، ليكون قالبا لخطابه (مرتاض، 2007، صفحة 237)، أما فيما يتعلق بنعت هذا العمل بأنه رواية فإن ذلك ليس إلا جريا على ما درج استعماله في تلك الحقبة (النصف الاول من القرن الماضي) على ألسنة الجماهير الجزائرية، إذ كانوا يعنون بلفظ الرواية التمثيلية أو المسرحية التي تلتزم الهزل أساسا والفكاهة عنصرا (كاتب، 2005، صفحة 5).

بالإضافة إلى ما ذكر، لا يعزب عن المتأمل في هذا النص الشعري أن يدرك الحضور المميز لعنصر الحوار المتبادل بين الشخصيات، وفي هذا يقول عبد المالك مرتاض: "فهذا النص إذن متشكل، في هيكله العام، من حوار تتبادله شخصيات مسرحية ... والصفة المسرحية أضفيناها على هذا النص انما أفادناها الحوار الذي هو المغذي الأول لتنامي هذا النص، ولكن هذا الحوار ليس من جنس الحوار الفني الذي نلفيه في النصوص المسرحية الراقية... وإذن، فإننا لا نخال أن يكون حوار الشيخ، في هذا النص الإبداعي... وإنما هو حوار ضاع في الوصف الملحاح، والاسهاب في طرح الفكرة الواحدة واستيفائها" (مرتاض، 2007، صفحة 238).

هو الرأي الذي وقف عنده حسن كاتب حين رأى أن إدراج هذا العمل مسرحية فيه بعض التجاوز، لأن هذا العمل ما هو إلا حوارية بين ثلاثة أشخاص ينضم إليهم آخر في النهاية، والمتأمل في هذا النص يدرك غياب ضوابط العمل المسرحي في هذا النص، "فليس هناك حدث ولا شخصيات متطورة، وليس ثمة حركة ذات صلة بحبكة معينة. ولقد إنبنى هذا العمل على ثلاث مناظر تصور ثلاث جلسات عقدها أبطال هذا النص، وكل من الجلستين الأولى والثالثة مصدرتان بأرجوزتين طويلتين تتضمنان استدعاء للحضور، الأولى موجه من البطل المحوري مدير المدرسة إلى صديقيه المعلمين في مدرسته، والثانية موجه إلى طرف رابع، أجمع الثلاثة على ضمه إلى حوارهم ومسعاهم. وقد يطول أحيانا ما يجري على لسان أحدهم، فيبدو مملا، بحيث تكثر فيه الاستطرادات التي كان يروم الإبراهيمي أن يجلى فيها بعض دقائق اللغة، أو يبين

وجهة نظره في بعض القضايا التي قدر انها ذات نفع أو أهمية تقتضيها المرحلة التي تمر بها الجزائر حينذاك" (كاتب، 2005، صفحة 5).

تصف رواية ''رواية الثلاثة'' حالة ثلاثة من الأساتذة عرفوا بدورهم الكبير في مواكبة الحركة الاصلاحية بتعليم الناشئة وتربيتها، وهم كما سماهم الإبراهيمي: الشيخ السعيد بن حافظ مدير مدرسة التربية والتعليم الحر بقسنطينة، والأستاذان عبد الحفيظ الجنان، ومحمد بن العابد الجيلالي المعلمان بها، وأبطال هذه الرواية من قسنطينة موطن رئيس جمعية العلماء ومؤسسها الشيخ ابن باديس، وكذلك الشيخ الإبراهيمي العضو الأول في هذه الجمعية والرائد لها بعد وفاة عبد الحميد بن باديس (حمادي، 2007، صفحة 345).

أما الدافع الذي جعل الإبراهيمي ينطق بهذه الرواية الواقعية هو ما ظهر من هؤلاء الأصدقاء من قطع لأواصر الصداقة والمودة والأخوة لما حكم البين بينهم وبين الشيخ الإبراهيمي، ورمت الغربة بالإبراهيمي في منفاه (حمادي، 2007، صفحة 345). فنظم الإبراهيمي هذه الأرجوزة تعبيرا منه عن عدم مراسلة أصدقائه له، بعد أن أصبح يعاني الوحدة والعزلة (الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، 1998، صفحة 59).

أما سبب انقطاع الثلاثة عن مراسلة الشيخ فلا يعود لجهلهم إجادة أساليب الكتابة، ولا لأنهم تناسوا الشيخ ولم يخطر ببالهم، بل سبب ذلك هو بخلهم دفع الفَرَنْكُ الذي يمثل ثمن الطابع البريدي الذي يحمل الرسالة إلى الشيخ، وهو في محنته التي هو بها في أمس الحاجة إلى المقومات الروحية والمعنوية العالية منه إلى المقومات المادية الزائفة، وهو لا يطمع منهم في أكثر من هذه الصلة (الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، 1998، صفحة 60).

وهنا، تبرز عقدة المسرحية التي أجاد الابراهيمي في تقديمها وجعلها تتجلى بين التقديم والحل النهائي وهو ما أكسب عمله الصبغة المسرحية التي ظهرت بمشاهدها الثلاثة (حمادي، 2007، صفحة 347).

3-1- الفصل الأول/ الرئاسة

بعد الدعوة التي أرسلها مدير المدرسة السعيد بن حافظ إلى رفيقيه الجنان والجلالي للحضور لأجل التباحث في شأن خطير، واقدام المدير على هذه الخطوة مرده إحساسه بقبح العار الذي سيلحقهم جراء عدم مراسلتهم للشيخ ونسيانهم له، ولذلك فالثلاثة -في نظره-ملزمون بأن يجتمعوا ويرجحوا أحد الحبين على الآخر: حبّ الشيخ، أو حبّ الفرنك (الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، 1998، صفحة 60). وبالرغم من أن هذا الاستدعاء لا بيان فيه لغرض، إلاّ أن الرفيقين ألهمهما تطويل وتهويل الاستدعاء " أن في هذا الجمع شرا سيذهب بفرنك من كل واحد، أو بأبعاضه وأجزائه" (الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، 1998، صفحة 60).

المتمعن في نص ''رواية الثلاثة'' يجد أن الفصل الأول " عبارة عن جلسة عقدها هؤلاء الثلاثة للاتفاق على نظام داخلي يحكم جلساتهم المستهدفة أساسا للتباحث في أمر يعرفه الثلاثة، ولكنهم يأبون الإفصاح عنه، بل يعمل اثنان منهم، أعني المعلمين، على صرف الحديث عنه إلى قضايا جانبية يثيرانها بين حين وآخر، ويستغرقون في استطرادات شتى، تذهب بهم بعيدا عن جوهر ما اجتمعوا من أجله، وهذا التشعب في الحديث متولد من طبيعة مهنتهم التي أورثتهم حب

الثرثرة والحذلقة والبهرجة اللفظية" (كاتب، 2005، صفحة 7)، مما جعل المدير يقول (الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، 1998، صفحة 68):

انتقلوا بنا إلى المفيد من عمل موفق سديد
وعينوا الرئيس حتى نشرعا في القصد مما رمته ونسرعا
فالأمر محتاج إلى التنجيز بسرعة في زمن وجيز
وليس في زيادة الكلام إلا الزيادة من الملام

وبعد محاورات ومداورات حسم الأمر بعقد لواء الرئاسة للمدير (الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، 1998، صفحة 75).

3-2- الفصل الثاني/ الاتفاق

ويبدأ الفصل الثاني بيقين من الرئيس أنه إذا تم عرض القضية ووصلوا إلى المقصود، وقفت مشكلة الفرنك في الطريق، مع علمه أن الإنصاف يقتضي أن يتحملوه أثلاثا، وهذه مشكلة على حدة، لأن الفرنك لا ينقسم إلى ثلاثة، ولذلك عرض عليهم من أول جلسة ضرورة خصه بصوتين، لكي يكون صوته مرجحا عند تساوي الأصوات. ولكنه يجابه من قبل شريكيه برفض مقترح الرئيس (كاتب، 2005، صفحة 7)، حيث يقول الجنّان (الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، 1998، صفحة 76):

يا سيدي أنت الرئيس حقا وإنما أعطيت هذا الحقا
ليحصل الترجيح في حال اللدد مع تساوي الطرفين في العدد
أما هنا فإننا وتر ولا داعي للترجيح عند العدد
فإن عرضت صورة فقلت (وي) وقلتما مثلي فرأي مستوي
وإن أباها صاحبي فقال (نو) فبيننا فيها خلاف معلن
فصوتك الواحد قد يؤيد رأيا من الرأيين أو يفند

وبعد هذا الرفض انتقل إلى اقتراح أخر وهو ضرورة ضم شخص رابع لجمعهم " ومراده من كل ذلك كله أن يستعين به على الرفيقين، ليتغلب رأيه على رأيهما في الخلاف، وإن أضطر إلى الحل الأول كان العضو الرابع مصححا للقسمة(...) لأن الفرنك ينقسم على أربعة انقساما صحيحا " (الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، 1998، صفحة 61)، والشيء الملاحظ في هذا الحوار أنه يجري دون الإفصاح عن غاية هذا الاجتماع وجلساته الماراتونية. ويسدل ستار هذا الفصل بالاتفاق على إضافة الشخص الرابع (كاتب، 2005، صفحة 8)

3-3- الفصل الثالث/ التصويت

تضمن هذا الفصل حضور أحمد بوشمال، وهنا كشف الرئيس سبب هذا الاجتماع، الذي لم تكن "سوى التباحث في شأن دفع ثمن الطابع البريدي الذي يوضع على الظرف ليحمل الرسالة إلى صديقهم المنفي بعيدا عنهم (وهو الشيخ الإبراهيمي نفسه)، بعد انقطاع طويل، وتفريط لا مسوغ له على الاطلاق" (كاتب، 2005، صفحة 8). وهو ما عبر عنه المدير في قوله (الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، 1998، صفحة 100)[2]:

فهل ذكرنا فضله علينا علينا وهل شكرنا برّه إلينا؟
وهل وصلنا رحم الأُبُوَّهْ وهل سلكنا مسلك الفتوَّهْ؟
وهل نهجنا منهج الوفاء؟ (فإنه من واجب الأبناء)
وهل عَرَتْنَا الدَّهْرَ أَرْيَحِيَّهْ؟ تُبْلغُهُ عنَّا ولو تحيَّهْ
وهل كتبنا مرّةً إليهِ؟ رسالةً تَنْفِي الأَسَى عليهِ

وبعد أن كشف الرئيس الغطاء عن الحقيقة، وأدرك الجَمْع المشكلة والداء، لكنهم لما وصلوا إلى الحل وتقديم الدواء، وقفت مشكلة الفرنك مجددا، وهو ما جعل الخلاف يشتد، والمناقشة تحتد، بحيث تمسك كل فرد بمقترحه (الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، 1998، صفحة 62)، "وتبقى النهاية مفتوحة مومئة إلى تقاعس هؤلاء مجتمعين عن الاضطلاع بواجبهم في تبديد وحشة أستاذهم في منفاه، وفي مؤانسته، عن طرق مراسلة لا تكلف إلا فرنك لا قيمة له" (كاتب، 2005، الصفحات 8-9).

خاتمة

لقد استطاع البشير الابراهيمي أن يخلد نفسه في التاريخ لسببين الأول يرتبط بمواقفه الجريئة والشجاعة ضد الاستعمار الفرنسي، من خلال منهجه الإصلاحي الذي سار عليه رافضا لكل أنواع الظلم والاستعباد، أما الثاني فيرتبط بنتاجه الأدبي وآثاره العلمية التي تدل على علو كعبه.

قائمة المراجع:

حسن كاتب. (2005). رواية الثلاثة للشيخ الابراهيمي نمطية الأداة وانزياح الخطاب. بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الرابع للغة والأدب والنقد. جامعة أربد. الأردن.

دراجي ,محمد .(2009) .مواقف الامام الإبراهيمي .*عالم الفكر*.5

عبد الله حمادي. (2007). *وقفة مع البشير الابراهيمي ومسرحيته رواية الثلاثة. ضمن كتاب: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه*. الجزائر: شركة دار الأمة.

عبد المالك بومنجل. (2009). *النثر الفني عند البشير الإبراهيمي*. الجزائر: بيت الحكمة.

عبد المالك مرتاض. (2007). *رواية الثلاثة للشيخ الإبراهيمي. ضمن كتاب: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه*. الجزائر: شركة دار الأمة.

[2] – المصدر نفسه. ص 100.

فايد ,بشير .(2009-2010) .*قضايا العرب والمسلمين في أثار الشيخ البشير الابراهيمي والأمير شكيب أرسلان* .رسالة دكتوراه (نسخة الكترونية)، قسم التاريخ والآقار. جامعة قسنطينة.الجزائر.

محمد البشير الإبراهيمي. (1998). *آثار محمد البشير الإبراهيمي* (المجلد 2). دار الغرب الإسلامي.

محمد البشير الإبراهيمي. (2007). *أنا، ضمن كتاب السيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه*. الجزائر: شركة دار الأمة.

محمد عمارة. (2011). *الشيخ البشير الابراهيمي إمام في مدرسة الأئمة*. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر.